العرب
الأحد 2021/11/07
السنة 44 العدد 12233

أيها المثقفون لا تنزلوا من أبراجكم العاجية.. نحتاجكم هناك

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

ثمة اعتزاز مبالغ فيه في التخصص في العالم العربي. التخصص مهمّ بالطبع. لا يمكن أن تسلم نفسك إلى طبيب لم يتخرج من كلية الطب. إذا زاد ارتفاع المبنى عن ثلاثة طوابق، من المهم الاستعانة بمهندس إنشاءات يعرف سمك الأعمدة التي ستحمل المبنى. البنّاء خبير وله ما يقوله في الأمر، لكن تخيل مبنى من عشرين طابقا بلا حسابات إنشائية.

الوعي المعرفي من ضرورات التغيير المنشود في مجتمعاتنا العربية فالمفكرون المعرفيون هم من غيّر التاريخ ودفعه إلى التحول

مبعث عدم المبالغة بالتخصص هو في الأمور التي تحتمل الخوض فيها من خلال تراكم الإدراك المعرفي. خذ مثلا طبيبا يكتب أعمالا روائية. يتحسّس البعض من هذا بالقول إن الأعمال الروائية والأدب في العموم هو صنعة الدارسين في المجالات الأدبية. تسمع مثل هذا الكلام في عالمنا العربي كثيرا. تسمع من عيّنته أكثر عندما يدافع خريج معهد للصحافة عن مهنة الصحافيين التي يريدها محصورة في خريجي المعهد. خريجو المعهد فيهم وعليهم. بعضهم ألمعيّون يتركون بصمة على المهنة والصنعة، وآخرون متعثرون لن يفيدوا الصحافة في شيء. ولكن بالتأكيد ثمة ما يكفي من الفسحة لآخرين ممن لم يتدربوا على المهنة بشكل أكاديمي، لكن لديهم قدرة على مجاراتها. هؤلاء ليسوا بالضرورة دخلاء.

الوعي المعرفي من ضرورات التغيير المنشود في مجتمعاتنا العربية. المفكرون المعرفيون هم من غيّر التاريخ ودفعه باتجاهات التحول الذكي والنهضة والتنوير. سمّهم علماء أو فلاسفة أو مفكرين. المؤكد أن سعة فرشتهم المعرفية كان لها الأثر الكبير في التغيير في محيطهم ومجتمعهم.

مبعث هذا الكلام هو سؤال التوسيع في مساحة الإدراك المعرفي. هو سؤال من الصعب الإجابة عليه. ربما نضعه في إطار مبسّط لعلنا نجد الإجابة.

خذ مثلا الثورة التقنية. من ينبغي أن يكتب عنها معرفيا للقارئ؟ مهندس خبير بمفرداتها التكنولوجية ولديه قدرة على تقديمها بلغة المثقفين؟ أم مثقف يقرر أن يقلع عن إدمان قراءة وكتابة النصوص الأدبية والفكرية نحو استكشاف عالم يغيّرنا يوميا ويحتاج إلى من يعمل على تقريبه للأذهان معرفيا؟

الكتابة عن الثورة التقنية سهلة نسبيا. الأجهزة التي نستخدمها يوميا "تثقفنا". بعد فترة من استخدام آيفون تصبح ملمّا بما يمكن للإضافات التقنية أن تقدمه للإدراك المعرفي. فيما عدا قلة قليلة من المعاندين لتقبل التكنولوجيا، يمكن لمثقف واع أن يخوض تجربة الكتابة عن التأثير الفكري والثقافي للتقنيات. يمكن لمهندس يقرأ ما هو أبعد عن المفردات التقنية أن يسخّر لغة الفكر لتقديم البعد المعرفي للتكنولوجيا.

المسألة تصبح أكثر تعقيدا في الخوض بمجالات علمية أو صحية. نحس بالاستلاب أمام هزات صحية تتسبب بها الأمراض والأوبئة. من يكتب عن السرطان؟ المريض بتجربته، أم الطبيب بخبرته، أم العالم الباحث بما يتوصل إليه في مختبره، أم المثقف الذي يدرس ظاهرة المرض بكل جوانبها ويعيها فيقدمها للناس ممن يرون في الأمر شيئا يكتنفه الغموض؟

انظروا ما حدث حين جاءت جائحة كورونا. لا الطبيب كان مستعدا ولا العالم ولا المثقف. من دخل على الخط عندما لاحظ ذهول المجتمعات أمام صدمة الوباء؟ رجال الدين ومشعوذون وجهلة. أخذ الأمر وقتا حتى في الغرب قبل أن يلتقط خليط من العلماء والمثقفين الخيط ويقدموا فكرة موضوعية وليست غيبية عن الوباء وتأثيره.

ابق هناك وقل لنا ما ترى (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

بمرور الوقت، زادت الحزمة المعرفية ولم تعد محصورة بالمرض، لكي يدخل عالم الاجتماع لتفسير العزلة والطبيب النفسي لتفسير الكآبة والمفكر الاقتصادي لشرح التأثيرات المختلفة لاختناق المجتمعات بين السياسي والمالي والاقتصادي والنفسي. ولا يزال الباب مفتوحا للاستزادة في هذا المجال.

أتمنى أن أشغّل راديو السيارة على برنامج ثقافي وأستمع لمثقف يتحدث عن التغييرات النفسية والمجتمعية التي تصاحب التغيرات البيئية، أو أن أستمع لعالم في البيئة يفسر ما يحدث لمستمع غير خبير بالفقاعات الحرارية التي تغير المناخ وتصحّر الأرض الخضراء وتغرق أرضا مشمسة بأمطار لا تنقطع.

المسألة أبعد من فكرة "العلم للجميع". ما عاد الأمر اختياريا عندما يجد الراعي في بادية العراق والشام أن الأرض ما عادت تنبت عشبا لأغنامه. يحتاج إلى مثقف متباسط أو عالم بيئي يعرف كيف يخاطب الناس أو خبير اجتماعي يربط البيئة وتغيراتها بالهجرة الداخلية والخارجية، بل والثورات.

أول اتهام للمثقفين هو سكناهم في أبراجهم العاجية. اليوم يحتاجون ليس إلى النزول من تلك الأبراج والاستمتاع بأضواء الإعلام الشعبوي، بل استخدام تلك المواقع المرتفعة للإطلالة والنظر وتحويل البصيرة الثقافية إلى بصيرة معرفية.

لا ضير أن يصعد إليهم ويشاركهم المشهد من كان بعيدا عن المفردات الثقافية التقليدية لكنه واع بمفردات التقنية أو الصحة أو البيئة أو الذكاء الاصطناعي أو التحليل النفسي والتفسير الاقتصادي والاجتماعي لحياة الناس. في تلك الأبراج، نضع جانبا نقابية التخصص التي لم يعد لها مكان في الوعي المعرفي اليوم.

علماء وأطباء عنصريون يصنعون نظرياتهم في الأدغال والمختبرات

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

عند الحديث عن العوامل التي ساعدت الامبراطورية الكولونيالية الفرنسية على بسط سيطرتها على أجزاء كبيرة من القارة الأفريقية، يتبادر إلى الذهن دور المبشرين في تنصير القبائل وإقامة الكنائس ونشر الديانة المسيحية حيثما حلّوا، بوصف ذلك الدور مدخلا إلى تغيير نظرة الرجل الأفريقي إلى الرجل الأبيض، الذي لم ير منه قبل مجيء المبشرين غير الاسترقاق. ولكن بعض المؤرخين المعاصرين يؤكّدون على دور العلماء عامّة، والأطباء خاصّة في ترسيخ العنصرية، وبالتالي خلق الأسباب التي تبرر غزو الجيوش الفرنسية، بدعوى أن الأفارقة يحتاجون إلى من يثقفهم ويغير عاداتهم البالية ويأخذ بأيديهم كي يدخلهم في الحضارة.

وإذا كانت العنصرية من وحي بعض المفكرين ورجال السياسة فإن الطبّ ليس بمنأى عن خلق أفكار مسبقة تتستّر بالعلم كي تثبت تمايز الأعراق، ليس من جهة اللون وحده بل ومن جهة البنية الجسدية والذهنية أيضا.

ذلك ما تناولته المؤرخة الفرنسية دِلفين بيريتي كورتيس في "أجساد سود وأطباء بيض، صناعة التحيّز العرقي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر". وهو كتاب يعالج تاريخ العنصرية العلمية، ولاسيما ذلك الذي روّج له الطب، بغية التساؤل عن الكيفية التي لا يزال اليوم يطبع بها ذلك الخطابُ المجتمعاتِ الغربية.

أوضحت المؤلفة نشأة النموذجيات (النموذجية هي علم النماذج البشرية منظورا إليها من جهة العلاقات بين الطبائع العضوية والذّهنية) في القرن الثامن عشر، من قبل علماء الطبيعيات أمثال السويدي كارل فون لينّي والألماني يوهان بلومنباخ والفرنسي الكونت دو بوفون، الذين كانت غايتهم تقسيم الجنس البشري للتأكيد على تميّز الجنس الأبيض، وكانوا استعانوا بعلم قوانين التصنيف للبرهنة على تفوق الأوروبيين جسديًا وأخلاقيًا وفكريًا على سكان المستعمرات سواء في أفريقيا أو في آسيا، مركزين ملاحظاتهم على البشرة وحجم الجماجم وشكلها، وحتى على الأعضاء التناسلية؛ فالأطباء وعلماء الطبيعة لا يكتفون بملاحظة الجسد، بل يدرسونه بدقة ومنهجية كي يصوغوا نظريات حول أصل فروق الألوان.

هؤلاء ينتمون إلى دعاة تنوع الأجناس واختلافها، وقد تصدى لهم فريق من المؤمنين بما أنزلته الكتب السماوية، وخاصة التوراة والإنجيل، مثل عالم التشريح جورج كوفيي، وظلوا أوفياء للفكر المسيحي الذي يعلي وحدة البشر حسبما جاء في سفر التكوين. غير أن الفريق الأول تشبث بموقفه، وراح يبحث عن مختلف زوايا الوجه كي يبين درجة البدائية والحيوانية لدى كل فرد، فكان أن اعتبر جسد المرأة السوداء قريبا من الفطرة البدائية، صالحا للأمومة في المقام الأول، وقد أكد بعض الأطباء الأوروبيين تميز المرأة الأفريقية من جهة تحمل آلام الوضع عن المرأة الأوروبية.

كما أوضحت المؤلفة، انطلاقا من التقارير الطبيّة التي كتبها أطباء الأدغال (أي أولئك الذين يمارسون الطب في المستعمرات الأفريقية) ما بين 1860 و1910، أن النظريات الطبية لم تعد تُصاغ في عيادات فرنسا، بل على عين المكان، وكانت في علاقة مباشرة مع النظام الكولونيالي العام.

تقول المؤلفة "إذا تم الثناء على قوة الأفارقة لقوتهم الجسدية، فذلك راجع أساسا إلى أن فرنسا تجد فيهم مصلحتها: أي خدمتها، كسائر الشعوب المستعمَرة".

ومن ثَمّ، تمّ النظر إلى السلطة الكولونيالية من جهة نفعها لصحة الأفارقة، ولاسيما التحكم في حياتهم الجنسية، التي توصف بالجامحة. غير أنها لا تخلو من مفارقة، تفرضها المتغيرات. فالجسد المعنصر يبدو في تقارير الأطباء نهما للجنس، ما يبرر كبح جماح الذّكور، وحتى الإناث، وكانت السلطات الاستعمارية قد شجعت أحيانا على ختان البنات، أو غضت عنها الطرف في أحسن الأحوال. ولكنها ترتدّ فتشجع على الإخصاب والتكاثر لخلق أياد عاملة لخدمة مشاريعها.

كما شجعت السلطة الكولونيالية على التقاط صور شمسية للسود كي تجعل السند الفوتوغرافي وسيلة لإخضاع الأجساد المستعمَرة لعين المستعمِر والطبيب داخل معمار المشروع الكولونيالي في القرن التاسع عشر، فتكون شهادة على بدائية الإنسان الأفريقي. ولم تكتف بالسماح بنشر الصور في الصحف والمجلات، بل استقدمت أفارقة لعرضهم في الفضاءات الفرنسية، تأكيدا على بدائيتهم وحيوانيتهم.

وكم من أفريقي، رجلا كان أم امرأة، جيء به إلى العواصم الأوروبية لعرضه كما تعرض الحيوانات في الحدائق المخصصة لها، كما حدث لساتجي بارتمان التي لُقّبت بـ"فينوس الهوتنتوتية"، فقد فحصها مشاهير العلماء، ثمّ شرّحها عالم طبيعيات يقال له جورج كوفيي، كي يستخلص تميزها عن سائر النساء البيض، ويعمم نتائجه على نساء إثنيتها كافة، وبذلك يعزز خطابُ السلطة العلمية الأفكارَ المسبقة.

مفهوم العرق «البيولوجي» لا يزال شائعا إلى اليوم سواء في المخيال الشعبي أم لدى بعض العلماء ولو بأشكال جديدة

لقد تم تحليل سلوك السكان الأصليين من قبل علماء الأعراق، مثل بول ريفي ومارسيل موس ولوسيان ليفي بروهل منذ عشرينات القرن الماضي، حين شرعوا في دراسة مقارنة للخصائص الاجتماعية والثقافية للشعوب. وكان المراقبون الميدانيون في الأثناء، سواء أكانوا أطباء عسكريين أم إداريين، ينظرون إلى السكان الأصليين من خلال شبكات قراءة جديدة، وتحرروا شيئا فشيئا من مفهوم الفطرة لشرح أصل الاختلافات بين الشعوب.

وعلى الرغم من الإعلانات المتتالية التي صدرت في الخمسينات والستينات من القرن الماضي تحت رعاية اليونسكو من قبل علماء أكدوا أن الأجناس كثوابت طبيعية لا وجود لها، فإن مفهوم العرق "البيولوجي" لا يزال شائعا في القرن الحادي والعشرين، سواء في المخيال الشعبي أم لدى بعض العلماء، وإن اتخّذ أشكالا جديدة، لاسيما تلك المتعلقة بالتعريفات الجينية للكشف عن عضوية الفرد في مجموعة منعزلة، تُحدّد بكونها "عنصرية".

تغير الخطاب الكولونيالي بتغير الظرف كما أسلفنا، حيث كان يستعيض عن العنصرية البيولوجية بعنصرية ثقافية، من خلال نقد الذهنية الأفريقية، ووصفها بالسذاجة والتخلف ما يستوجب تثقيفها حتى تلحق بركب الحضارة بمفهومها الغربي، وفي ذلك صورة عن الأسس الأيديولوجية التي قامت عليها "مهمة التحضير" الفرنسية، التي ما وُجدت إلا لإضفاء سمة أخلاقية على طموحات ترابية صرفة، وأهداف استعمارية محضة.

ولكن بالرغم من استقلال البلدان الأفريقية، لا يزال ذلك التصور التثقيفي التحضيري حاضرا في الذهنية الفرنسية حتى الآن.

لقد تناولت المؤلفة مواضيع هامة، ولاسيما ملاحظة تأويل الأطباء البيض للأجساد السوداء، والاستهانة العلمية بالقدرات الذهنية للشعوب الأفريقية، والاعتبارات العرقية حول جماليات الأجساد والأسئلة المتعلقة بالنوع والجنسانية، وكذلك تطور التمثلات الطبية عن قوة المستعمَرين وهشاشتهم.

وكان يمكن أن تدعو القارئ إلى التساؤل عن تواصل استخدام العرق في الطب وتشكيلاته الجديدة لاسيما في علم الوراثة. في "لحم الإمبراطورية"، كتبت المؤرخة وعالمة الأنثروبولوجيا آن لورا ستولر تقول "المعرفة الحميمة والقوى العرقية في النظام الاستعماري مستمرة في حاضرنا. فتعميم اختبارات السلفية الجينية في الأعوام الأخيرة وكذلك التغطية الإعلامية المتزايدة للمنشورات العلمية التي تحدد أصول السلالات الجغرافية المختلفة داخل مجموعات بشرية لا تزال تضفي الشرعية على عودة هذا المخيال العرقي في علم الأحياء، الذي لا يني يتسم بمعايير نمطية واضحة".

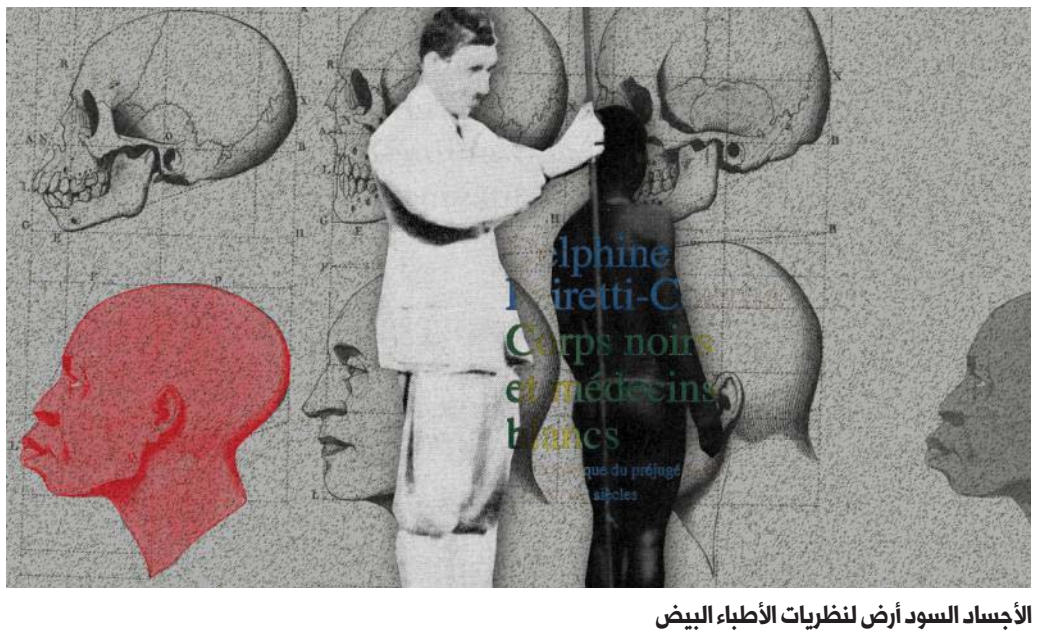

الأجساد السود أرض لنظريات الأطباء البيض

الصفحة تنشر كاملة على الموقع بالاتفاق مع مجلة الجديد الثقافية اللندنية